تحضير الأرواح

والتصوف والتحلل من الشريعة

للدكتور عبد الحليم محمود

استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

فى كل ميدان من الميادين نجد الأدعياء ، نجدهم فى الميدان الدينى ، وفى الميدان السياسى ، وفى الميدان العلمى ونجدهم كذلك فى ميدان التصوف .

وهدف هؤلاء الأدعياء معروف : إنه الاستفادة من أقصر الطرق .

وكما لا يضر الدين ، ولا يضر العلم ، أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون ، كذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف

وكما أن للدين وللعلم حقائق معروفة ، وسمات معينة ، وحدودا من شأنها أن تظهر زيف المزيفين وباطل المبطلين ، كذلك الأمر ، فى الجانب الصوفى .

نقول هذا بمناسبة ما سمعناه حديثا عن بدعة ضالة أخذت تتسرب إلى بعض النفوس التى لم تتعمق الجانب الدينى عموما ، ولا الجانب الصوفى خصوصا .

هذه البدعة ترى أن الشخص الذى وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . . . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون !!

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت — فى العصر الحاضر — بين رجال درسوا القانون والتشريع : يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حد لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية .

وإذا بحثت عن مصدر هذه المعرفة التى وصلتهم فسترى عجبا عجابا ، ستعلم أن مصدر هذه المعرفة : إنما هو الأرواح التى يستحضرونها . فتلبس فيما يزعمون

جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزله إلى أبده ومن بدايته إلى نهايته ، ومن مشرقه إلى مغربه !!

وقد انتشرت بدعة تحضير الأرواح فى وسطهم ، يتحدثون عنها مصبحين وممسين ، حتى لقد أصبحت دينهم الذى لا يدينون بغيره ، ولا يتلقون الوحى عن سواه . وأصبحت كلمة الأرواح عندهم ، تحل محل القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ومن الغريب أنهم يدعون انتسابهم إلى التصوف ، ويزعمون أنهم من كبار الصوفية ، ومن أساطين العارفين ، ومن عباقرة الملهمين .

وقد بلغ الأمر بأحدهم أن زعم . فى فترة من الفترات ، أنه من كبار الأولياء ، ثم لم يكفه ذلك ، فزعم أنه رسول ملهم ، ثم تجاوز ذلك إلى أنه عيسى عليه السلام ، ثم كان فيما بعد محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص من البشرية جملة فزعم لأخصائه أن الألوهية حلت فيه ، والأرواح التى يستحضرها تؤيده فى كل ما يزعم ولا ترى هذه الأرواح ، كما لا يرى هو ، فى ذلك شذوذا ولا تناقضا وصدق الله تعالى ، إذ يقول فيه وفى أمثاله ممن يتصلون بالجن ، وينحرفون عن سواء السبيل .

« وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقا » .

ولعلك تتساءل . هل بين تحضير الأرواح والتصوف من صلة ؟

وجواب رجال التصوف فى ذلك حاسم قاطع .

ليس هناك من صلة بين تحضير الأرواح والتصوف ، اللهم إلا إذا كانت هناك صلة بين المتناقضات .

إن رجال التصوف يعتبرون تحضير الأرواح عملة زائفة ، لأنها تعامل مع الجن والشياطين !! ويتذكرون فى هذه المناسبات قول الله تعالى .

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، يُلْقُونَ السَّمْعَ ، وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » .

وقوله تعالى :

« وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ » .

وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن تحضير الأرواح ، كظاهرة خداعة ، وليس من غرضنا أن نتحدث عن التهريج والزيف والضلال والانحراف الذى يسود الأوساط التى تعمل على ترويجه ، وليس من همنا ، أن نبين نشأتها التاريخية فى الغرب بين الأوساط اليهودية ، التى روجت لها ، وأنفقت فى سبيل نشرها الأموال الطائلة ، لأغراض وأهداف يعرفها المحيطون بسر انتشار هذه الدعوة : « تحضير الأرواح » .

إن غرضنا الآن إنما هو بيان موقف الصوفية من مسألة : « إسقاط التكاليف الشرعية » ، وهى مسألة لم تنشأ بين بعض من يزعم التصوف فى العصر الحديث ، وليس لهم حتى فضل السبق فى الباطل ، إن كان السبق فى الباطل له فضل .

إنها ضلالة قديمة نشأت فى أوساط متحللة انتسبت إلى التصوف انتسابا باطلا وحاربها ممثلو التصوف فى كل عصر وفى كل بيئة .

ومما لا شك فيه أن القول الفصل فى كل مشكلة من المشكلات إنما يرجع فيه إلى الذين يمثلون الموضوع الذى تنتسب إليه المشكلة .

وإذا رجعنا إلى زعماء التصوف الذين لا يختلف فى زعامتهم اثنان ، نجدهم - سواء فى ذلك القدماء منهم والمحدثون - ينكرون الفكرة إنكارا تاما ، ويرونها زيفا وضلالا وانسلاخا عن الدين بالكلية .

وسنتحدث عن آراء بعض القدماء فى الموضوع ، ثم نفصل ، نوعا ما ، رأى الشيخ عبد الواحد يحيى ، وهو زعيم الصوفية فى العصر الحديث دون منازع .

قال أبو يزيد البسطامى لأحد جلسائه :

« قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية - وكان رجلا مشهورا بالزهد - فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : « هذا غير مأمون على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأمونا على ما يدعيه ؟! » .

ومن كلام أبي يزيد :

« ولو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟ » .

ويقول سهل التسترى معبرا عن أصول التصوف : « أصول طريقنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق » .

ويقول الجنيد — سيد هذه الطائفة وإمامهم على حد تعبير القشيرى :

« من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

وقال :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال :

الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته » .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد وقال .

« أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل » فقال الجنيد :

« إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا » .

فإذا ما وصلنا إلى الإمام الغزالى ، فإننا نجده يقول فى شىء من التفصيل ، فيه دقة ، وفيه استدلال غاية فى القوة :

« وأعلم أن سالك سبيل الله تعالى ، قليل ، والمدعى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامتين له :

العلامة الأولى : أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته إيرادا وإصدارا ، وإقداما وإحجاما ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض ؟!!

فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى ينحط عنه فى بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات ، كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ؟

وأقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور ؛ وإن المحققين قالوا :

« لو رأيت إنسانا يطير فى الهواء . ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » ، وهو الحق .

فاذا ما انتهينا أخيرا إلى أبى الحسن الشاذلى ، رضى الله عنه ، فاننا نجده يقول:

« إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن الله تعالى ضمن لى العصمه فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة »

والصوفية يتبعون فى كل هذا ، النصوص القرآنية والسنة القولية والعملية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم يعلمون لا شك البديهيات التاريخية : من أن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، كان المثل الأعلى فى أداء الشعائر إلى آخر لحظة من حياته الطاهرة .

هذا رأى القدماء وسنتحدث عن رأى الشيخ عبد الواحد فى كلمة تالية إن شاء الله تعالى ، وخيرما نختم به هذه الكلمة الآن الحديث النبوى الكريم :

« سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوم تركوا العمل بالدين وأحسنوا الظن فى الله . فقال : كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .